

الصحافة المكتوبة في الجزائر : تطورات تاريخية

قادري لويزة

luikadri@yahoo.fr

مقدمة

أصبحت الصحف في الجزائر من أهم الوسائل التي تسمح للمواطن من معرفة ما يجري في كل أنحاء الوطن، وعليه ما هي أهم المراحل التاريخية التي مرت بها ؟ و ما هي أبرز التحديات التي تواجه عملها؟ هل دور هذه الصحف هو كامل خاصة بعد ظهور الصحف الخاصة؟

I- لمحة عامة لتطور الصحافة المكتوبة في الجزائر:

يعتقد الكثير بأن الصحافة في الجزائر ظهرت لأول مرة في أثناء الحركة الوطنية في عهد المرحلة الاستعمارية الفرنسية، لكن الحقيقة غير ذلك، ففي 25 جوان 1830 صدرت صحيفة « Estafette d'Alger »، والتي بدأ توزيعها في 1 جويلية من نفس السنة.

و قد توقفت هذه الجريدة بعد صدور ثلاثة أعداد منها، لتخلفها عدة جرائد أخرى كأسبوعية "المرشد الجزائري" التي جاءت لتبرير الاستعمار بأنه جاء لتطوير الجزائريين، وظهرت جريدة الأخبار سنة 1839، وهي غير حكومية وعمّرت حتى

نهاية القرن، و تميزت الفترة من 1850 إلى 1900 باشتداد المقاومة الشعبية الجزائرية، قابلتها ديناميكية كبيرة في إصدار الصحف، حيث وصل عددها إلى 150 صحيفة في تلك الفترة وكانت كلها ملك لمعمرين.

و بعد ثورة 1871، التي قادها "المقراني" اشتد طغيان الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري الأمر الذي استاء له بعض الفرنسيين الأحرار، و فتحوا المجال للجزائريين المسلمين للتعبير عن شعورهم، ومطالبهم عن طريق الصحافة "وهكذا تأسست أول صحيفة جزائرية المنتخبة" ب ف 1882.

حيث اهتمت بشؤون الجزائريين (المسلمين) خاصة الظروف القاهرة التي فرضها الاستعمار، غير أن ضغط الجالية الفرنسية كان وراء اختفاء جريدة "المنتخب" بعد أن نشر منها أكثر من 35 ع دد.

زد على ذلك صدور عدة صحف من قبل رجال الدين الذين كانوا ينشطون في جمعية العلماء المسلمين بقيادة "الشيخ عبد الحميد بن باديس" (الشهاب، السنة النبوية، الشريعة، الصراط، البصائر).

كما عرفت الساحة الإعلامية سنة 1938 إنشاء جريدة "Alger républicain" وكانت محسوبة على التيار الاشتراكي الشيوعي، وظلت الصحافة المكتوبة الجزائرية على هذا الوضع إلى غاية

اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954، والتي كان لها الأثر البالغ على توجه الصحافة المكتوبة في البلاد خاصة بعد عقد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956، الذي اتخذ عدة قرارات لمسايرة المرحلة التالية، ومن بين ما اتخذه هو تكوين لجنة الدعاية والإعلام للمساهمة في تحرير الوطن ومساندة الثورة والتعريف بها والدعاية لها في الخارج، في حين ظهرت صحيفة المجاهد في ماي 1956 كناطق رسمي لحزب جبهة التحرير الوطني، وأختير هذا العنوان كحلقة وصل بين الشهداء والثورة.

وقد استقادت الساحة الإعلامية الجزائرية غداة الاستقلال من بعض الحرية في إصدار الصحف في ظل غياب سياسة وقانون جزائري واضح في تسيير الصحافة المكتوبة، وعليه فالساحة الإعلامية بين سنة 1962 و 1963 شهدت صدور 11 صحيفة منها 06 يومية و كانت قوية في عدد السحب الإجمالي حيث وصلت إلى 300 ألف نسخة كلها باللغة الفرنسية.

غير أن جبهة التحرير الوطني، وفي اجتماع مكتبها السياسي في سبتمبر 1963 قرّر تأميم هذه الصحف باستثناء "Alger républicain" التي كان يسيرها أشخاص يتمتعون بالجنسية الجزائرية، والتي كانت تنشر وفقا لاتفاقيات 'إيفيان'.
و في 29 / 03 / 1963، تم إصدار جريدة "الجمهورية" بمدينة وهران على أنقاض "Oran-Républicain"، وحلت جريدة النصر مكان "La dépêche de Constantine".

غير أن الدولة آنذاك كانت تفكر في الكيفية التي تمكنها من الهيمنة على الصحافة المكتوبة حتى تصبح تابعة للسلطة، مثلما فعلته مع الإذاعة والتلفزيون بإصدار مرسوم 01 أوت 1963 الذي جعلها مؤسسة عمومية ذات طابع صناعي و تجاري تابعة للدولة.

و تأتي هذه الإجراءات التي اتخذتها الدولة آنذاك برئاسة السيد "بن بلة" ردًا على الأحداث التي شهدتها منطقة القبائل، و هو ما أبطل فيما بعد المادة 19 من دستور 10 سبتمبر 1963.

و قد كان لوزير الإعلام آنذاك السيد "محمد الصديق بن يحي" (1966/ 1970)، المتوفى في حادث الطائرة، دور كبير في استحداث أول قانون للمؤسسات الصحفية في 1967، بعد مشاورات واسعة مع بعض المثقفين كـ "كاتب ياسين"، و "مولود معمري"، كما صدر قانون آخر سنة 1968 متعلق بتنظيم مهنة الصحفي.

ثم جاء دستور 1976، الذي أغرق الصحافة المكتوبة الوطنية حيث نص في المادة 53 منه على أن حرية التعبير والاجتماع مضمونة ولا يمكن التذرع بها لضرب الأسس الاشتراكية. و فوق كل هذا نصت المادة 73 على أنه "يحدد القانون شروط إسقاط الحقوق والحريات الأساسية لكل من يستعملها قصد المساس بالدستور، أو بالمصالح الرئيسية للمجموعة الوطنية، أو بوحدة الشعب...أو بالثورة الاشتراكية."

و تعتبر هذه المواد مؤشرا على حرص الدولة احتكار وسائل الإعلام، و بالمقابل التخلص مما جاء في دستور 10 / 09 / 1963، الذي نص على ضمان الدولة لحرية التعبير والصحافة و وسائر وسائل الإعلام.

و بقيت الأمور على ما هي عليه حتى سنة 1982، أين صدر أول قانون للإعلام في تاريخ الجزائر المستقلة والذي اعتبر قطاع الإعلام من قطاعات السيادة الوطنية و بالتالي استبعاد فتحه أمام القطاع الخاص على غرار القوانين والدساتير السابقة.

كما يلاحظ على قانون الإعلام لسنة 1982، التأثير الكبير بما تضمنه قرارات المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني المنعقد في 1979 بخصوص الإعلام.

و تواصلت الوضعية الإعلامية على ما هي عليه حتى سنة 1988 التي شهدت أحداث 5 أكتوبر ، والتي كانت المنعطف الحاسم في تاريخ الجزائر المستقلة، غير أن هذه الأحداث سبقتها عدة أمور كانهيار أسعار النفط منذ سنة 1985، و إنشاء لجنة حقوق الإنسان والتي كانت مستقلة عن حزب جبهة التحرير الوطني بالإضافة إلى ظهور وجوه شبابية متشعبة بالأفكار الليبرالية في الحزب الواحد، وأمور أخرى اقتصادية (ارتفاع المديونية وسقوط المعسكر الشيوعي) والتي كان لها تأثير كبير على التوجه السياسي للبلاد منذ 1988، والجانب الإعلامي كذلك .

و كانت الخطوة الكبيرة في تاريخ الصحفيين الجزائريين هي قانون الصحفي المحترف لسنة 2008 ، الذي أتى ليحدد أكثر مهام الصحفي من حيث الواجبات و الحقوق و كذا أهم الامتيازات التي قد يحصل عليها الصحفي في أثناء مزاولته لمهنته.

II- التوجّه نحو الصحافة الخاصة:

بعد ظهور الصحافة المكتوبة الخاصة ، في سنة 1990 تاريخ صدور أول قانون للإعلام (90/04)، و الذي كان انطلاقة جديدة في تاريخ الصحافة المكتوبة الجزائرية، أصبح إصدار الصحف حرّاً من غير قيود، فلم يعد ذلك حكراً على الدولة كما كان الأمر في قانون 82/01 المؤرخ في 06 فيفري 1982، و بات بإمكان كل شخص طبيعي أو معنوي تتوفر فيه الشروط القانونية إصدار صحيفة، و يذكر أن هذا القانون لم يأت هكذا بل كان نتيجة عدة أحداث و تحولات عرفتّها البلاد أهمّها أحداث 05 أكتوبر 1988.

و يتبين من هذا أن المشرع الجزائري قد اتبع نظاما ديمقراطيا متفتحاً، ذلك أنّ إيداع النشريات يتم عند التوزيع و ليس قبلها أو وقت طبعها، أي استبعاد إمكانية وجود أي رقابة مسبقة على النشريات، وهو ما يمثل تدعيماً لحريّة الصحافة.

و قد أغفل المشرع الجزائري في قانون الإعلام 90-04 إعطاء أي تعريف واضح للمؤسسة الصحفية واستعمل في كثير من الأحيان عبارة "جهاز إعلامي". غير أنه أوجب مجموعة من الشروط والالتزامات على المؤسسة الصحفية منها ما يتعلق باستقلاليتها ومنها ما يتعلق بالقائمين عليها، كشفافية التمويل و منع تلقي هبات أو إعلانات من جهات أجنبية، واشترط أن يكون مدير النشيرية من جنسية جزائرية .

و ميدانيا كانت صحيفة "Le soir d'Algérie" أول يومية مستقلة ظهرت في ماي

1990، و كانت الفكرة الأولى للسيد "معر فراح" الذي كان مديرا ليومية "Horizons"

العمومية ، وعرفت آنذاك شعبية كبيرة حيث ارتفع سحبها من 20 ألف في ماي 1990

إلى 150 ألف نسخة في سبتمبر 1991 ، و ترأسها منذ البداية "فؤاد بوغانم" .

و تميزت تلك الفترة بإصدار عدد كبير من الصحف و النشريات الخاصة ، بينما حولت

"العمومية" إلى شركات مساهمة ذات مسؤولية محدودة، تراقبها انتقاليا لجان وصاية، فيما تم

تحريض أكبر عدد من المهنيين على اختيار طريق الصحافة الخاصة، وذلك بدفع مرتبات

سنتين مسبقا لتكوين رأسمال، وبتقديم مساعدات شتى للتأسيس(منها الحصول على مقر مجاني

لمدة خمس سنوات والاستفادة من السحب في مطابع الدولة). و قروض بنكية خاصة لأجل

التجهيز مع الاحتفاظ بحق العودة إلى المؤسسات الإعلامية الأصلية في حالة فشل المشروع .

كما استفادت الصحافة المكتوبة أيضا من مساعدات أخرى تمثلت حسب ما جاء في بيان

المجلس الوزاري في 1995/06/02 ، من إعفاء سنتين كاملتين من الضريبة على

أرباح الشركة، و الرسم الإضافي على القيمة المضافة والدفع الجزافي، كما أقر نفس المجلس

تخفيض الرسم على القيمة المضافة إلى 07 %.

ثم برز على الساحة الإعلامية "الوطن" وهي جريدة ناطقة باللغة الفرنسية، وقد أسسها السيد

"عمر بلهوشات"، وكانت تصدر صباحا ، وتألقت اليومية من 19 مساهما كلهم

من جريدة "المجاهد" التحقوا بعد قيامهم بإضراب بسبب الرقابة المبالغ فيها على المقالات وظهرت الوطن في أول طبع من 12 صفحة، وبعد أشهر قليلة من صدورها أصبحت من رواد الصحافة الناطقة بالغة الفرنسية.

و قد واجهت هذه الجريدة عدة مشاكل مع الإرهاب حيث أمرت "الجبهة الإسلامية للإنقاذ" بمقاطعتها، وتعرض مديرها السيد "عمر بلهوشات" إلى محاولتي اغتيال سنة 1993، غير أن الجريدة واصلت عملها محليا و دوليا بعد تكريم رئيسها "بلهوشات" بجوائز "لجنة حماية الصحافة" والقلم الذهبي من طرف " الفيدرالية الدولية لناشري الصحف ."

و عرفت سنة 1990 كذلك ظهور صحيفة "الخبر" و بالضبط في الأول من نوفمبر، بقيادة عدة صحفيين شباب أتوا من جريدتي "الشعب" و "المساء" العموميتين.

و استطاعت صحيفة الخبر بشراكة مع يومية الوطن اقتناء مطبعة سنة 2000 وهذا لتحقيق استقلالية تامة فسي مجال الطباعة. و في سنة 2002 تدعّمت "الخبر" و "الوطن" بمطبعتين جديدتين واحدة بشرق البلاد وأخرى بغربها ، ويعود نجاح الخبر حسب السيد "محمد رباح" في كتابه "الصحافة الجزائرية" إلى اعتماده على لغة بسيطة، والابتعاد عن التحزّب.

في حين عرفت سنة 2008 و بداية سنة 2009 اعتلاء صحيفة الشروق اليومي قمة الصحافة الجزائرية والعربية بسحب يفوق 600 ألف نسخة يوميًا، و يرجع هذا التقدم نظرا

لإعتمادها على الخبر الجوّاري أو المحلي وإعطائها أهمية للمراسلين (أكثر من 70 مراسل) كما تألقت عدة صحف أخرى على غرار "Le quotidien d'Oran" و "Liberté" بسحب يفوق 150 ألف نسخة في 2008. و تجدر الإشارة إلى توقف العديد من الصحف بين سنوات 1994 و 1998 مع انخفاض هام في عدد السحب وهذا منذ إعلان حالة الطوارئ في فيفري 1992.

أمّا من حيث التمويل ، فنجد بأنّ الإشهار يشكل أحد أهم مداخل الصحف الجزائرية، و كما نعلم فمدخل الإشهار تضمنها الوكالة الوطنية للنشر والإشهار للصحف بفضل تعليمة الحكومة الصادرة في ماي 2004، والتي تجبر المؤسسات العمومية على تمرير إعلاناتها على وكالة الإشهار العمومية قبل أن يتم توزيعها على الصحف. فالكثير من الصحف اختفت لأسباب تجارية، وأخرى متعلقة بعقاب السلطة لها على خطها الافتتاحي حتى باتت الصحف التي فلتت من احتواء السلطة شديدة الحرص على توازنها المالي أو ربحها. ونذكر في هذا الشأن مرسوم حالة الطوارئ، ثم قانون العقوبات المعدل في جويلية 2001 ، حيث تمّ تشديد العقوبات على جنح الصحافة لاسيما القذف في حق رئيس الجمهورية و المسؤولين السامين في الدولة.

● خاتمة:

الصحافة الجزائرية هي صحافة فتية و عليه فكل النقائص التي تعاني منها يمكن تداركها عن طريق إصدار قوانين تحدد مهام الصحفي و كذلك عن طريق تطوير الصحفيين لإمكانياتهم.

أهم مشكل تعاني منه الصحافة الجزائرية هو مشكل التمويل ، خاصة بعد احتكار قطاع الإشهار في ما يحص المؤسسات العمومية.

الخوف من وقوع الصحف الجزائرية في قبضة الاقتصاديين الذي سيؤدي بها إلى تبني أفكار و توجهات ملاكها التي قد لا تخدم تطلعات القراء.

● قائمة المراجع:

1-المواثيق الرسمية:

- الجريدة الرسمية : أبريل 1990 ، 2008.

2-المواقع الالكترونية:

1- شبكة النبا المعلوماتية-الأربعاء 29 / تشرين الثاني / 7 - 2006 / ذي القعدة 1427/

(<http://www.annabaa.org/nbanews/60/339.htm>)

2- عنوان هذه المذكرة حرية الصحافة المكتوبة في الجزائر و القانون المقارن

(<http://www.djelfa.info/vb/showthread.php?t=492526>)